التحليل الاقتصادي لقضايا التخلف

بقلم بسام طيبي

من الصعب القيام بأي تحليل اقتصادي علمي دون التطرق الى تعقيدات علم الاقتصاد السياسي والترمينولوجيا (علم الاصطلاحات) الاقتصادية التي يصعب فهمها على غير المتخصصين . ولكن البرفوسور موريس دوب ، الاقتصادي الماركسي الكبير ، واستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة كامبردج الانكليزية يتغلب على هذه الصعوبة فيقدم في كتابه « النمو الاقتصادي والبلدان المتخلفة » (١) الذي لا يزيد على ٩٩ صفحة تحليلا مقتضبا للقضايا الاقتصادية الرئيسية المتعلقة بالتخلف . يريد موريس دوب عرض هذه القضايا على جمهور واسع ، لذلك يقول بـ « ان هذه الدراسة الصغيرة ليست موجهة للاقتصاديين المختصين » (ص ٦) ولهذا يحاول التبسيط بقدر ما يسمح به التحليل ، اذ انه من المستحيل استبعاد بعض المصطلحات لدى التحليل اذ « ان هناك حدا لا يمكن تجاوزه في معالجة هذه المواضيع باللغة اليومية الدارجة دون ادخال بعض المفاهيم الجديدة » (ص ٦) .

١ ـ نموذج التطور الرأسمالي :

يبين موريس دوب اعتمادا على عدد من المراجع الاقتصادية ان المجتمعات السابقة للمجتمع الرأسمالي كانت ذات معدل نمو بطيء جدا . ويفسر دوب ظاهرة التطور البطيء للمجتمعات قبل الرأسمالية بسببين اولهما افتقار هذه المجتمعات للتكنولوجيا وثانيهما عدم وجود عملية تراكم رأس المال . ويضيف دوب « ولكن ظهور الرأسمالية بقدرتها الآلية وانتاجها الصناعي ومن ثم تلك التغييرات التقنية (التكنولوجية) المستمرة وعمليات تراكم رأس المال

Accumulation of Capital

ادت جميعها الى ادخال تبديلات جوهرية على الموضع المذكور » (ص ١٠) ويذكر دوب بالجملة الشهيرة في الميثاق الشيوعي حيث يقول ماركس « لقد لعبت البرجوازية دورا ثوريا جدا على مسرح التاريخ.. ان ما يميز العهد البرجوازي ويجعله مختلفا عن غيره هو التحول المستمر للانتاج » (ص ١٠ ـ ١١) .

لقد كان معدل نمو المجتمعات ما قبل الرأسمالية لا يزيد عن ١ بالمئة سنويا بينما وصلت المجتمعات الرأسمالية الى معدل نمو ٢٫٦ بالمئة سنويا .

كل هذا كان في فترة صعود الرأسمالية وخلال الدور الثوري الذي لعبته البرجوازية . ولكن بعد انتهاء عمليات التصنيع الاساسية وانتهاء عملية تراكم رأس المال الاولية ، بدأ النظام الرأسمالي بالركود، وبدأت معدلات النمو الاقتصادي تتقلص احيانا وتزيد احيانا . يقول دوب « ان من اهم الصفات التي يتميز بها تطور البلدان الرأسمالية عدم توفر معدل متساو ، مستمر ، للتنمية ، بل يتحقق بشكل متقطع، وعلى اساس اندفاعات . وفي افضل الحالات نجد ان التوقيت المنتظم للتوسع الاقتصادي غير منتظم بسبب ما يسمونه بدون ضوابط تمييزية دورة اقتصادية ، تموجات اقتصادية ، أو أزمات اقتصادية دورية . وهكذا فان منحنى النمو لنشاط الانتاج والتجارة في ظل النظام الرأسمالي يتعرض بصورة متناوبة لتموجات توسع وانكماش » (ص١٥) وهذه المسائل الى جانب مسائل اخرى تطرح علينا السؤال عما اذا كان نموذج التطور الرأسمالي صالحا لخروج مجتمعات العالم الثالث الاقطاعية ونصف الاقطاعية من الحلقات الفارغة للتخلف الاقتصادي ـ الاجتماعي . لقد استطاع النظام الرأسمالي في فتراته الاولى كما بين ماركس القيام بثورة شاملة ولكن البرجوازية ما ان استقرت حتى اصبحت رجعية راكدة ، فهل يمكن اعادة ما حصل في اوروبا واميركا في بلدان العالم الثالث ؟ اليست هناك ضرورة لاخذ طريق جديد ؟ هذه اسئلة يجاب عليها في سياق الكتاب .

٢ ـ التخلف ، اسبابه وطرق القضاء عليه :

قبل ان يقدم موريس دوب تحليلا اقتصاديا يعطي اجوبة على الاسئلة المذكورة اعلاه ، يتطرق الى تحليل العوامل التي خلقت التخلف الذي يعانيه العالم الثالث . ويقسم دوب هذه العوامل الى ثلاثة : اولا العامل التاريخي الذي يمكن تلخيصه بظاهرة الاستعمار والامبريالية وغزواتهما الاقتصادية للعالم الثالث . وهكذا فان « هذه المناطق المتخلفة كانت تشكل بمعظمها مستعمرات او شبه مستعمرات : اي عبارة عن مناطق زراعية ومناطق احتياطي من المواد الاولية . وقد استغلتها البلدان الرأسمالية الكبيرة على انها مصدر للمواد الاولية.. وهنا يكمن من وجهة نظر تاريخية ، السبب الرئيسي لتاخر هذه المناطق » (ص ٢٤) . اما العامل السياسي فيلخصه دوب بقوله « ان الاستعمار اقام التنظيمات الاجتماعية والسياسية البالية وحافظ عليها (كالعناصر الاقطاعية مثلا) » (ص ٢٤) ثم يذكر دوب العامل الاقتصادي وهو « أن تثمير رأس المال كان في المناجم ، والمزروعات ، وانتاج المواد الاولية ، أو في الصناعات التصديرية التي تجعل من المستعمرة قطعة من البلد الاستعماري ، ولكنها قطعة منفصلة من الاقتصاد الاستعماري » (ص ٢٤) . ويبين موريس دوب استنادا على تحليلات الاقتصادي الماركسي البولندي آوسكار لانجه ان هذه الاحوال تجعل الاخذ بالطريق الرأسمالي الحر الذي اتبعته اوروبا مستحيلا بالنسبة للعالم الثالث للخروج من حلقات التخلف الفارغة . والدول الرأسمالية ـ الامبريالية ستعمل كل ما في طاقتها لمنع العالم الثالث من مغادرة التخلف ، لان هذا يعني اولا خسارة فادحة بسبب فقدان مناطق الاستغلال ، اذ ان العالم الثالث عندما يغدو متطورا لن يسمح لاحد باستغلاله وانما هو التخلف الذي يسهل للدول الامبريالية عمليات الاستغلال . وثانيا فان العالم الثالث سيكون منافسا غير

---

(١) انظر : موريس دوب : النمو الاقتصادي والبلدان المتخلفة ـ بيروت ١٩٦٦ ـ دار الطليعة . الاصل بالانكليزية وهو :

Maurice DOBB : Economic Growth and Underdeveloped Countries, Second Edition, London 1964. Lawrence and Wishart

والدار الناشرة هي :

ولقد حاولت من حين لآخر العودة للاصل الانكليزي لتفحص ترجمة المصطلحات . وللاسف لا يذكر المترجم الاصل ، كذلك لا يذكر اذا كانت الترجمة عن الاصل الانكليزي او عن الترجمة الفرنسية أو الالمانية . والترجمة لا بأس بها اذا غضضنا النظر عن الاخطاء في ترجمة بعض المصطلحات .

مريح بالنسبة للعـــالم الامبريالي عندما يصنع نفسه . كل هذا يجعل الدول الامبريالية تحكم طوقها على العالم الثالث لمنعه من التطـور مما يجعل الطريق الرأسمالي الحر ـ حتى ولو اراد الانسان طرقه ـ مستحيلا وغير ممكن التحقيق .

ان الدول الامبريالية تشدد اذن على ضرورة اقتصار اقتصاديات العالم الثالث على المستويات الزراعية واستخراج المواد الاولية. يقول اوسكار لانجه « ونتيجة لهذا الوضع اصبحت اقتصاديـات البلـدان المتخلفة وحيدة الفعالية . اي اصبحت اقتصاديات تصدير للمـواد الاولية والمنتجات الغذائية . اما الارباح المتحققة عن استثمار رأس المال الاجنبي في هذه البلدان المتخلفة فلم يكن ليستخدم في تمويـل مشاريع انتاجية جديدة ، بل كان يعاد الى البلدان التي صدر عنها ، اي الى البلاد الرأسمالية » (١) وحتى اذا لم ترسل الارباح الى الدول الرأسمالية واعيد استثمارها Reinvestments فان ذلك يتـم ايضا في المشاريع التي تنتج المواد الاولية او الغذائية . ويشير دوب بعد ذلك الى ان البرجوازية الوطنية في العالم الثالث تركز اهتماماتها على الاستثمار في العمليات التجارية وليس في التصنيع .

ويعدد دوب العوامل التي تساعد على الابقاء على التخلف والتي تتعلق باكملها بظاهرة الاستغلال الامبريالي . من هذه العوامل التخصص بمنتوج زراعي او اثنين ، اي ما يسمـــى بالمصطلـــح الاقتصـادي Mono-Culture يضاف الى ذلك وجود السوق التجارية الدولية حيث تفرض الدول الصناعية الاسعار الدولية . وهكذا ترتفع اسعار المنتوجات الصناعية وتنخفض اسعـــار المنتوجات الزراعية والاولوية (٢) . يقول دوب : « لقد مالت أسعـار المواد الاوليـة نحو الهبوط خلال السنوات الاخيرة ، وانها لتمثل اليوم بين ٢٠ ـ ٢٥ بالمئة اقل مما كانت عليه في فترة ١٩٥٠ » (ص ٣٢) .

هذه الاوضاع المؤلمة ليست بنهائية . يقول دوب « التاريـخ لا يقف ابدا ، وان تحقق مثل هذه الامكانية يضع البلدان المتخلفة عاجلا امام خيار نهائي » (ص ٣٦) وهذا الخيار هو بين الاخذ بنمـــوذج التطور الاشتراكي العلمي الثوري للتغلب على التخلف والبقاء فـــي الاوضاع الحالية والتبعية غير المباشرة لسلطة الاستعمار الجديد خلال أوضاع التخلف وعبودية رأس المال .

هناك دول متخلفة مثل كوبا ـ الصيـن ـ فيتنام الشمالية ـ كوريا الشمالية قررت الاختيار وخرجت من سلطة الاستعمار الجديد . اما البلدان العربية فلم تقم بالخيار . فالاشتراكية العربية التي يقـال عنها انها روحية وغير مادية لم تخرج بنا من حلقة التخلف ، والخامس من حزيران كان دليلا مؤلما على هذا .

٣ ـ نموذج التطور الاشتراكي :

يتطرق موريس دوب الى نماذج التطور الاشتراكية وخاصة النموذج السوفياتي . وكان دوب قد ذكر في مطلع كتابه ان الاتحاد السوفياتي ـ بعد الثورة ـ قد زاد من انتاجه الصناعي بنسبة ١٠ بالمئة وتبلـغ النسبة الوسطية لمعدل زيادة الانتاج في الدول الاشتراكية ١٣ بالمئـة

(١) نقلا عن موريس دوب ، المصدر المذكور ـ صفحة ٢٥ ـ يمكـن العودة للترجمة الكاملة لمصدر الاستشهاد المذكور اعلاه وقام بها ايضا الدكتور هشام متولي : اوسكار لانجـــه : « التخطيط والتنميـــة الاقتصادية » ، دمشق ١٩٦٥ .

(٢) لقد حللنا آلية انخفاض اسعار المواد الاوليـــة والزراعيـة وارتفاع اسعار المواد الصناعية في نطاق تحليلنا للاستعمار الجديد . راجع مقالنا : « الامبريالية الجديدة ـ نظرية لينين عن الامبريالية بعد خمسين عاما » ، دراسات عربية ـ السنة الرابعة ـ فبراير ١٩٦٨ ـ العدد ٤ ـ صفحة ٥٣ ـ ٦٤ .

وهذا يبدو خياليا بالمقارنة مع نماذج التطور الرأسمالية (انظر ص ١٨ ـ ١٩) ففي فترة لا تزيد على ربع قرن تحول الاتحاد السوفياتي الى دولة صناعية كبيرة في حين ان « الصناعة الروسية (قبـــل الثورة) لم تكن لتمثل الا بعض « الجزيرات » الضائعة فـــي بلاد ذات قطاع زراعي مهيمن ، ولكنه متخلف في معظم اجزائه » (ص٣٨) .

ويميل دوب كثيرا للاخذ بالنموذج السوفياتي وانا لا استطيـع مشاركته هذا الميل رغم اعتقادي بضرورة الاخذ بطريق الثورة الاشتراكية العلمية اي الماركسية ـ اللينينية للخروج من حلقة التخلف .

فانا اشارك موريس دوب اعجابه بنسبة التطور العالية والسريعة التي وصل اليها الاتحاد السوفياتي ، ولكن لا انسى ان هذا كان على حساب الملايين ، فتم التصنيع عن طريق العنف وعن طريق استغـلال الفلاحين ، وهذا ما لم يوافق عليه لينين ابدا ، وهذا ما قام بـــه ستالين بعد موت لينين .وحتى دوب يقول « لقد كان مـــن مبادىء لينين ، وذلك طيلة فترة الثورة والحرب الاهلية وفترة اعادة البناء ، توحيد صفوف الطبقة العاملة في الصناعة مع الفلاحين ... ترى ، الن تتعرض وحدة الصف هذه للتصدع اذا ما اشتـــد الضغط الاقتصادي ـ السياسي على الفلاحين لتقتطع من حصيلة عملهم ومـن استهلاكهم الضئيل الوسائل المالية الضرورية لتمويل الصناعة ؟ ذلك كان رأي الاغلبية في ذلك الوقت » (ص ٤١) ولكن ستالين استطاع بعد وفاة لينين القضاء على هذه الاغلبية التي صنعت الثورة ، لينفذ عملية التصنيع على حساب الانسان السوفياتي .

ان الاشتراكية ذات محتوى انساني بالدرجة الاولى ، والتصنيع ضروري ولكن يجب ان يتم دون استغلال الانسان ، والا فلا فرق بين نموذج التصنيع الرأسمالي والنموذج الاشتراكي ، اللهم في ان النموذج الاشتراكي اسرع من الاول واكثر فعالية . ولكن ليس هذا الفرق قائما بين الرأسمالية والاشتراكية وانما الفرق هو في رفع سلطة الانسان عن اخيه الانسان . ومن هنا يأتي رفضنا لنموذج التصنيع السوفياتي. وقد وعى قادة الثورة الصينية وبعدهم ثوار الفيتنام وثوار كـــوبا المحتوى الانساني للاشتراكية فاخذوا طريقا يختلف تماما عـن النموذج الستاليني . فهم اخذوا بالاشتراكية العلمية (اي الماركسية ـ اللينينية) وشددوا على المحتوى الانساني لهذه الاشتراكية واستطاعوا أيضا الخروج عن طريق التبعية لرأس المال الاجنبي ومن حلقة التخلف عـن طـــريق التصنيع دون سفك الدماء على الطريقة الستالينية البشعة .

واحب ان أوضح هنا ان موريس دوب ليس بستاليني مطلقا وان كان يرحب بالاخذ بالنموذج السوفياتي . اذ انه يفعل ذلك لاعجابـه الشديد بمعدل النمو المرتفع جدا الذي وصل اليه الاتحاد السوفياتي، ولكنه ينسى ان ملايين من المواطنين الروس دفعوا حياتهم ثمنا لهذا .

منشورات دار الاداب

تطلب في

الـدار البيضاء (المغرب)

مـن

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩

« وطنيّة »

لم يذكر بعد صلاة المغرب
يوم أذيع النبأ الفاجع
كيف طواه الموكب
ومضى يضرب في الطوفان
يسبق كل الجيران
لم يذكر « حسنين اللبان »
الا صوتا من أعماق الحاره
يخرج .. يعلو صوت الفاره
يقتحم جدار النيران
يحفر في سد الاحزان
يرفع في الظلمة رايه
(يا ريس
لا تدع المركب
أدرك غرقانا
جرحانـا
شاطئنا الاخضر)
مرحى يا « حسنين »

من علمك هتاف الثوار ؟
من علمك الحكمة حين يصاب الاحرار؟
لمـا ماتت طفلتك الاولى
لم تقطع رحلتك الليليه
وخرجت تجوب الطرقات
تطرق ابوابا تنتظرك كل مساء
ما اشقى من يترك طفلته الاولى
دون وداع
كانت أحلى فتيات الحي
كان الكل ينادي « وطنيه »

***

ما أغلى الميت والحي
من اجل رغيف
من أجل نسيج أبيض للطفله
« حسنين اللبان »
لم يقطع جولته لما ماتت « وطنيه »
ما أقسى الخوف !

لكـن الليله
أقسم ان يصمد في وجه الخوف
لا يستسلم
أن يقطع جولته الليليه
أن يرفع في الظلمة رايه
حتى يأمن في غده الرحله
حتى لا تشهد « وطنيه »
موتا آخر بعد اليوم
حتى يكبر اخوتها
يجتازوا « الاعداديه »
(يا ريس
لا تدع المركب
أدرك غرقانا
جرحانـا
شاطئنا الاخضر)

القاهرة **حسن فتح الباب**

غير ان تشديد موريس دوب على الاخذ بالطريق الاشتراكي بكونـه الطريق الوحيد للخروج عن التخلف وتحليلاته الاقتصادية العميقة ونقده للنظريات الاقتصادية الرجعية ، كل هذا يدعو للاعجاب ، رغـم نقدنا آعلاه لموريس دوب . ونحن نشاركه آراءه ما عدا دفاعـه عن النموذج التصنيعي السوفياتي ايام ستالين رغم عدم كونه ستالينيا ، فموريس دوب معترف به كأحد اقطاب الاقتصاد السياسي الحديث وحتى لدى الاقتصاديين البرجوازيين . وكتبه الاقتصادية ـ التي لم تترجم للعربية للاسف ـ تعد في معظم جامعات العالم المتقدمة كمراجع اقتصادية رئيسية .

٤ ـ خاتمة :

يقول دوب في مطلع كتابه ان بقاء العالم الثالث فـي اوضاع التخلف يعني البقاء في احضان الاستعمار الجديد ، اذ ان التخلف ينزع لان يربط البلدان المتخلفة « بعجلة الامبريالية (*) التي تسعى هذه البلدان للتخلص منها لتحقق استقلالها السياسي . وحتى تتمكن بقدر ما يمكن لها من السرعة أن تقضي على مظاهر ضعفها الاقتصادي، فانها ستظل مرتبطة بما يسمى ((الاستعمار الجديد)) » (ص ٦) .

ويقول دوب بحق ان الطريق للخروج من حلقة التخلف وبالتالي مغادرة احضان الاستعمار الجديد ، هو الثورة الاشتراكية والبنـاء على اسس الاشتراكية العلمية . ولكن الاشتراكية ليست فقط الدواء الوحيد لامراض العالم الثالث بل هي أيضا دواء لامـراض المجتمعات الرأسمالية كما يقول دوب في اخر الكتاب . « ففي البلدان المتخلفة يتعلق الامر بخلق واحداث الطاقات المهيأة للنمو ، اما بالنسبة للبلدان المتطورة فالامر يتعلق بالاستغلال الكامل لهذه الطاقات وتطويرها حتـى بلوغ مرحلة التسوية الكاملة للمشكلة الاقتصادية » (ص ٩٥) وكمـا يقول دوب فان « الجواب الوحيد المجدي على القضايا المطروحة فـي كلتا الحالتين هو التخطيط الاقتصادي الاشتراكي » (الصفحة نفسها).

لقد آن الوقت لنفهم الاشتراكية كعلم ونتعلم من الكتب الاشتراكية العلمية مثل كتب موريس دوب كيف نقضي على التخلف واوضـاع المجتمع العربي التقليدي المنحل ، فهذه الاوضاع هي التي سببت هزيمة الخامس من حزيران . والاشتراكية كعلم هي الحل الوحيد لمشاكلنا ، واعتقد ان علينا ان نترك الاقوال الشاعرية عن الاشتراكية مثـل « اشتراكيتنا تنبع من الروح » وما شابه ذلك من الميتافيزيقيـا . فالاشتراكية علم والعلم يقوم على التحليل وليس على الارواح .

فرانكفورت **بسام طيبي**

(*) في الترجمة العربية يكتب المترجم الدكتور متولي الاستعمار ولكن في الاصل الانكليزي توجد كلمة الامبريالية . والمترجم لا يفـرق بين كلمتي الاستعمار والامبريالية ويترجم كلمة الامبريالية في النص بكامله بكلمة الاستعمار وهذا خطأ . للتعرف على الفرق بين الاستعمار والامبريالية راجع المصدر التالي : غي دو بوشير : تشريح جثـة الاستعمار ـ بيروت ـ دار الاداب ١٩٦٨ ـ صفحة ١٨ ـ ٢٣ .